2011

حزب الله: الاستثناء اللبناني

رابحة سيف علام

منتدى البدائل العربي للدراسات
Arab Forum for Alternatives (AFA)

تعريف بالكاتب:

- باحثة في مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية.
- عضو الفريق البحثي لمنتدى البدائل العربي للدراسات.
- متخصصة في الشأن اللبناني.
- لها عدة مقالات وأبحاث منشورة.

عن الورقة:

مملا شك فيه أن الحديث عن حزب الله ينطوي على عدة اعتبارات مختلطة تتناسب مع الطبيعة التعددية لأدوار ووظائف حزب الله التي يؤديها على المستوى المحلي اللبناني أو على المستوى الإقليمي الأوسع. فهو بالأساس حزب ديني وحركة مقاومة مسلحة وشبكة اجتماعية وخدمية واسعة وحزب سياسي وفاعل إقليمي دون الدولة له تحالفات إيرانية وسورية. الأمر الذي يطرح عدة تحديات وإشكاليات لم يتم حسمها بعد، وستؤدي الكيفية والوجهة التي ستحسم بها هذه التحديات مستقبل الحزب ومستقبل أدواره المتعددة وهي كلها الأمور موضوع البحث في هذه الورقة؟

قائمة المحتويات

مقدمة.....1

أولا: الأدوار المتعددة لحزب الله.....4

ثانيا: تداعيات وتفاعلات الأدوار المتعددة لحزب الله.....11

هذه الورقة ضمن سلسلة غير دورية يصدرها المنتدى، وهي نتاج لورش العمل التي ينظمها ويشارك فيها فريق العمل بالمنتدى، كما أن هذه الأوراق لا تعبر بالضرورة عن رأي المنتدى.

مقدمة:

مملا شك فيه أن الحديث عن حزب الله ينطوي على عدة اعتبارات مختلطة تتناسب مع الطبيعة التعددية لأدوار ووظائف حزب الله التي يؤديها على المستوى المحلي اللبناني أو على المستوى الإقليمي الأوسع. فهو بالأساس حزب ديني وحركة مقاومة مسلحة وشبكة اجتماعية وخدمية واسعة وحزب سياسي وفاعل إقليمي دون الدولة له تحالفات إيرانية وسورية. الأمر الذي يطرح عدة تحديات وإشكاليات لم يتم حسمها بعد، وستؤدي الكيفية والوجهة التي ستحسم بها هذه التحديات مستقبل الحزب ومستقبل أدواره المتعددة وهي كلها الأمور موضوع البحث في هذه الورقة؟

أولا: الأدوار المتعددة لحزب الله

1 -<u>حزب ديني</u>

نشأ حزب الله من رحم مجموعة من علماء الدين الشيعة الذين تلقوا تعليمهم الديني في النجف وقمّ على يد كل من السيد محمد باقر الصدر وأية الله على الخميني. ومن ثم عبروا عن حالة متصاعدة من التدين في محيط الشيعة اللبنانيين في أعقاب تكوين حركة المحرومين في الستينيات بزعامة موسى الصدر وحسين الحسيني. حيث امتدت هذه النزعة الدينية لتزحف على الطائفة الشيعية للتعبير عن خصوصيتها المذهبية ثم تصاعدت بعد اختفاء موسى الصدر أثناء زيارة له لليبيا عام 1978 واندلاع الثورة الإيرانية في العام التالي. وفي هذا الإطار تكونت مجموعات دينية متفرقة اتفقت على استلهام نموذج الثورة الإسلامية في إيران ونظرية ولاية الفقيه، من ثم التلازم بين الديني والسياسي في إدارة شأن الطائفة الشيعية. وكان على التيار الناشيء أن ينافس الفريقان الذين اقتسما التمثيل الشيعي في هذه الفترة وهما حركة أمل والحزب الشيوعي. وبالتالي نشأ الحزب بالتنسيق بين مجموعات متفرقة تشكلت من تيار ديني واسع يضم علماء وطلاب العلم الشرعي في حوزات إيران والعراق، والحق أن الرافد الديني قد تطور داخل البناء الفكري للحزب. فطور حزب الله خطابا جادا امتزج به السياسي بالديني وصولا الى الخطاب القيمي تخطى به بمراحل كثيرة إشكاليات الخطاب الإسلامي السُني المناظر له. فأساس البنية الفكرية للحزب تقوم على جدلية المستضعفين "المظلومين" والمستكبرين "الظالمين"، فأساسه بذلك ليس العقيدة فحسب وإنما الموقف من الظلم وقد تخطى بذلك جدلية دار الإسلام ودار الكفر المناظرة له في الفكر الإسلامي السُني. وهكذا تخطى خطاب حزب الله الموقف من الآخر الديني في ظل الواقع الاجتماعي اللبناني، فاعترف له بحقوق المواطنة كاملة في الدولة الراهنة من منطلق أنه إنسان يشترك معه في قيم ومكتسبات الإنسانية عامة.

ولكن هذا لا يُسقط ولو نظريا التزام حزب الله بالدولة الإسلامية المثالية التي يتميز بها برنامج الحركات الإسلامية بشكل عام، فهذا الالتزام يلهم البنية الدينية التأسيسية لبرنامج الحزب ويثريه بالمفاهيم والمفردات والسياقات المرجعية دون أن يكون حاضرا بشكل يومي في أجندته السياسية.

ورغم التزام الحزب الفكري بولاية الفقيه، فإنه يقر مسبقا بعدم إمكانية تطبيق مفراداتها في مجتمع تعددي كالمجتمع اللبناني، وبالتالي أسقط ما تمليه هذه النظرية من بنود أجندته واحتفظ بها في إطار مرجعيته القيمية. هذا الحسم المنهجي بين النموذج المثالي أو اليوتوبي التي يمثل المرجعية الدينية للحزب جعله لا يغرق كثيرا في تفاصيل الواجبات الدينية غير القابلة للتطبيق في لبنان، وساعده على التحرك على أساس سياسي واقعي وبراجماتي.

وخلال سنوات استهدف حزب الله تطوير وإنشاء عدد كبير من المساجد والحسينيات عبر لجان تابعة له تنظم عدد من الأنشطة المتنوعة الدينية والرياضية والكشفية والنسوية والتربوية. كما أنشأ الحزب بإشرافه المباشر أو بالتعاون مع آخرين عدد من المدارس والحوزات الشرعية لتدريس العلم الشريعي بما يوفر على الشباب مشقة السفر للعراق أو إيران. وقد أسهمت هذه الرؤية الدعوية التربوية في تنشئة جيل من الشباب اللبناني المنتمي للحزب أو قريب من دوائره مشبع بالعلم الديني والثقافة الدينية الاستشهادية المستوحاة من النماذج التاريخية خاصة استشهاد الحسين (ع) بما أعطى وقودا بشريا كبيرا للمقاومة يطلب الشهادة والموت في سبيل نصرة المستضعفين.

2 - حركة مقاومة مسلحة

كان الرافد الديني لحزب الله مبعثرا على هيئة تيارات مكونة من شخصيات كثيرة دون أن تكون موحدة تحت راية معينة، غير أن الحدث الأهم الذي استفز توحيد هذه الشخصيات على أهداف مشتركة كان الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982. حيث برزت الحاجة الملحة لتنظيم مقاتل يدافع عن سكان المنطقة الجنوبية والذين كانوا من الشيعة بالأساس، في وجه الاحتلال الإسرائيلي الذي كان يضيف المزيد من ضحاياه كل يوم. فخلال السنوات الأولى للاحتلال كان 80 % من القرى الجنوبية قد أصابه الدمار، منها 7 قد دُمر بشكل كامل، وسقط نحو 19 ألف قتيل و32 ألف مصاب. فضلا عن أسر أكثر من 10 آلاف من اللبنانيين والفلسطينيين في سجون تحت السيطرة الإسرائيلية. الأمر الذي عزز روح المقاومة لدى أهالي الجنوب وأعطى زخما كبيرة لفكرة المقاومة المسلحة والتي كان الفلسطينيون قد اضطلعوا بها قبل أن يتم جلاء منظمة التحرير الفلسطينية بُعيد الاجتياح الاسرائيلي، مما أخلى الساحة للمقاومة اللبنانية لتنمو وتتطور. ولكن ما ألهب حماسة الشيعة للانخراط في المقاومة على أساس ديني كان قيام قوات الاحتلال الإسرائيلية بتدنيس موكب عاشوراء عام 1983 وإغتيال الشيخ راغب حرب إمام قرية جبشيت عام 1984.

وكان للدعم الإيراني أثرا كبيرا على التطور العسكري السريع لحزب الله، فمن المعروف أن نحو 1500 من عناصر الحرس الثوري الإيراني قد عبرت من سوريا الى لبنان واستقرت بالبقاع وساهمت في تدريب العناصر الأولى لحزب الله عام 1982. وقد استمر الدعم الفني والعسكري منذ هذا الحين، بالإضافة الى الدعم المالي الكبير الذي تقدمه إيران لحزب الله والذي قدره أحد تقارير الكونجرس الأمريكي بنحو 200 مليون دولار سنويا في العقد الأخير. وقد تطورت تطلعات حزب الله الذي تكون رسميا تحت هذا الاسم بانصهار عدد من الخلايا المقاتلة المدعومة من إيران عام 1985. ففي البداية كانت العمليات المنسوبة لحزب الله تقدر بنحو 100 عملية في الفترة بين 1985الى 1989، ثم تطورت الى 1030 عملية بين 1990 و1995، ثم 4928 عملية

في الفترة بين 1996 و2000. ومن ثم فالحزب لم يتوقف عن مراكمة العتاد والخبرات العسكرية لمواجهة الاحتلال الاسرائيلي الذي كان بمثابة سبب وجوده نفسه. كما أن هدف حزب الله المعلن كان بشكل أساسي تحرير الأراضي اللبنانية وقد ظل هذا الهدف قائما عقب انسحاب إسرائيل الى الحزام الأمني عام 1985 ثم انسحابها من الجنوب كافة عدا مزارع شبعا وتلال كفر شوبا عام 2000. ثم طوّر حزب الله خطابه المقاوم لينتقل من تحرير الأرض فقط الى تحرير الأرض والأسرى ثم الردع في مقابل الميل الإسرائيلي للتوسع على حساب أراضي لبنان وثرواته المائية.

وبالتالي فقد طوّر حزب الله من خطابه وعدّل فيه ليواكب تحقيق بعض الأهداف المستجدة، فسلاح حزب الله لم يعد سلاح تحرير فحسب ولكن أيضا سلاح ردع يمنع إسرائيل من الذهاب الى حرب سريعة في لبنان دون أن يكبدها خسائر ضخمة، فتحجم من الأساس عن خوض هذه الحرب المفترضة. وهكذا نجد أنه من خلال مراكمة العتاد والخبرات استطاع حزب الله أن يقدم نموذج استثنائي لحركة مقاومة استطاعت أن تغير معادلة القوة بين لبنان وإسرائيل خاصة بعد حرب 2006، الأمر الذي يجعل من تسخين الحدود اللبنانية الإسرائيلية أمرا بالغ العواقب. ورغم أن الحزب لا يعترف بإسرائيل أو بحقها في الوجود، إلا أنه لم يتجاهل وجودها الفعلي، بل سحب تدريجيا من أجندته العسكرية فكرة القضاء على إسرائيل وتحرير القدس وسائر الأراضي الفلسطينية والتزم تدريجيا بسقف الأجندة اللبنانية فقط. والدليل على ذلك أن صفقة تبادل الأسرى عام 2008 قد خلت من الأسرى العرب واقتصرت على الأسرى اللبنانيين ورفات شهداء لبنانيين وبعض الفلسطينيين. كما أن الحزب لم يعمد الى تسخين الحدود اللبنانية الإسرائيلية إثناء حرب غزة عام 2009. ومع رفض حزب الله لمبدأ المفاوضات مع إسرائيل كى لا يضفي عليها شرعية أو يعترف لها ببعض الحقوق، إلا أنه لم يتذمر من المفاوضات السورية الإسرائيلية التي امتدت خلال التسعينيات الى عام 2000 ثم تجددت بعد حرب 2006. فهو يرفض أن يكون الطرف المفاوض بشكل مباشر ويحتفظ بمبدئيته في هذا الخصوص، ولكنه قد يستجيب ببراجماتية للاشتراطات التي قد ترتبها هذه المفاوضات كما سبق وحدث أثناء المفاوضات السورية الإسرائيلية في التسعينيات ، فكان يخفض أو يصّعد من عملياته بحسب متطلبات سير المفاوضات آنذاك.

3 -<u>شبكة اجتماعية وخيرية</u>

اهتم حزب الله منذ نشأته بتكوين شبكة من الخدمات الاجتماعية التي تربطه بجمهور الشيعة في الجنوب والبقاع والضاحية الجنوبية على نحو يعزز من قاعدته الشعبية ويضيف إليها المزيد. والأهم من ذلك أنه اهتم بتوفير الدعم المباشر للمتضررين من الحروب الإسرائيلية المتلاحقة على لبنان كى يقلل من أهمية النظرية الإسرائيلية التي ترفع الكلفة البشرية لنشر السخط الشعبي من عمليات المقاومة. والحقيقة أنه قد نجح في ذلك الى حد بعيد، فالحزب أسس بشكل مباشر أو عبر كيانات مستقلة قريبة منه شبكة واسعة من المدارس بكافة مستوياتها لها خلفية إسلامية لنشر ثقافة المقاومة وتقديم خدمة تعليمية في آن. كما أنشأ العديد من المستشفيات والمستوصفات العامة والمتخصصة التي تقدم خدمات مجانية أو بأسعار رمزية لا تتعدى سعر التكلفة فضلا عن الصيدليات شبه المجانية. كما اهتم أيضا حزب الله مبكرا بتعمير كافة القرى والمنازل المتضررة من القصف الاسرائلي المتكرر، فأنشأ منظمة جهاد البناء التي تقوم تلقائيا بتعويض الأهالي

المتضررين أو بناء ما تهدم. وقد ساهمت هذه المؤسسة بشكل كبير في إعمار ما تهدم خلال العدوان الأخير في 2006 بشكل سريع للغاية نافست فيه حتى إعمار الدولة الذي لا يزال متعطلا حتى اليوم.

ورغم أن حزب الله قد تبنى بشكل أساسي مقولات اجتماعية تؤمن بالعدالة الاجتماعية على خلاف ما تم اعتماده في لبنان من سياسة اقتصادية نيو ليبرالية موسعة في سنوات ما بعد الطائف. فهناك من يعتبر أن حزب الله قد ساهم من خلال خدماته للطبقات الفقيرة في امتصاص غضب هذه الطبقات بما حال دون انفجارها الطبيعي بسبب هذه السياسات المجحفة. ويتهم أصحاب هذا الرأى حزب الله بأنه قد وفر للسياسات النيو ليبرالية ضمانة من الأمان الاجتماعي، مما يجعله بالتالي مشاركا في تنفيذ هذه السياسات غير العادلة عبر تهدئة الأوضاع وامتصاص الغضب المحتمل. خاصة أنه لم يحشد كافة طاقاته لمعارضة هذه السياسيات أو محاولة نقضها من أساسها وإنما اكتفي بتقديم "المسكنات" الخدمية التي صبت في اتجاه استمرار هذا النظام الاقتصادي غير العادل دون عثرات تذكر.

والحقيقة ان مقاربة الحزب في هذا الشأن كانت مختلفة، حيث اعتبر ان من واجبه الديني والسياسي توفير الغطاء الاجتماعي الملائم لحماية الطبقات الفقيرة من وقع هذه السياسات الاقتصادية طالما أنه غير قادر على تغييرها جذريا. وعدم قدرته تلك تعود لكون اجندته المقاومة تحتل قمة أولوياته مما يجعله مضطرا للتغاضي عن بعض السياسات التي يعتبرها غير عادلة في سبيل استمرار التوافق حول أجندته المقاومة. وهو الامر الذي انعكس على مشاركته في العمل السياسي بشكل عام منذ العام 1992 وحكم الى حد بعيد خياراته السياسية على المستوى الداخلي.

أما عن البعد الثالث في الجانب الخدماتي والخيري لحزب الله، فهى المؤسسات السياحية والثقافية التي اهتم الحزب بتأسيسها او دعم تأسيسها من جانب قوى مستقلة عنه. وهى تساهم في نشر ثقافة المقاومة ونشر وسائل التسلية على أساس إسلامي يسمح العائلات المرتبطة بشبكته بالمزاوجة بين الترفيه والالتزام الديني ودعم خيار المقاومة في آن واحد. من هذه المشروعات مثلا "الفانتزي ورلد" ومشروع "جبل الصافي للسياحة البيئية" أو فتح سجن الخيام للجمهور باعتباره متحفا أو معلما شاهدا على ظلم الاحتلال، قبل أن يتم قصفه وتدميره بالكامل في حرب 2006 ليعاد التخطيط لافتتاحه بعد تجهيزه بشكل متطور. وفي الذكرى العاشرة لتحرير الجنوب تم افتتاح معلَم "مليتا السياحي الجهادي" وهو موقع سابق من مواقع المقاومة الذي تم افتتاحه للجمهور كى يتعرف الزائرون فيه على تاريخ المقاومة ويشاهدون فيه المواقع السرية للمقاومين وأسلحتهم.

ومن هذه الزاوية نجد أن حزب الله قد استطاع من خلال شبكته الاجتماعية أن يحقق عدد من الأهداف، أهمها إعادة دمج الطائفة الشيعية في المجتمع اللبناني بعد أن عانت تاريخيا من التهميش، فوفر فرص التعليم للأسر الفقيرة ووفر الإعانات اللازمة لأهالي الشهداء كى يحافظ على فكرة الاستشهاد التي كانت وقودا لمقاومته فيطمئن مقاتليه على مصير عائلاتهم إذا ما استشهدوا. كما أنه قد زاحم بذلك منافسه التقليدي داخل الطائفة الشيعية حركة أمل التي أدى تراجع مصادر تمويلها الى تراجع خدماتها بالتبعية. والأكثر من ذلك أنه نجح في تقديم نموذج

منافس للدولة في رؤية تقديم الخدمات فنشط في المناطق المهمشة التي لم تشملها الدولة برعايتها وتفوق في تقديم الخدمات والإعمار بشكل مغاير مما يضع النموذج الذي تعتمده الدولة محط اختبار. والحق أن مختلف الأحزاب والطوائف في لبنان تملك شبكات اجتماعية تملأ بها فراغ الدولة ولكن نجاح شبكة حزب الله وانتشارها وتمايزها يجعلها أقدر على منافسة الدولة وليس ملئ فراغها فحسب خاصة في ظل انعدام ثقة جمهور حزب الله فيما قد تقدمه الدولة[1].

4 - حزب سياسي بأجندة قيمية

اتجه حزب الله الى استثمار الشعبية المتنامية التي حققها من خلالها مقاومته وخدماته وخطابه الدعوي فى العمل السياسي. والحقيقة أن معظم مؤسسي حزب الله كانوا قد انشقوا عن حركة أمل في البداية اعتراضا على ما اعتبروه انغماسا لأمل في السياسة المحلية مع شركاء مغايرين بل خصوم كالقوات اللبنانية آنذاك. المأخذ الأساسي لهذه النواة المكونة لحزب الله فيما بعد، كان أن النظام السياسي غير عادل لأنه يوزع السلطة طائفيا بشكل غير متوازن ولأن القائمين عليه آنذاك يتعاملون مع اسرائيل. ولكن بعد الطائف انجز الحزب مراجعة سياسية كبيرة لتصوره عن الدولة اللبنانية فاعترف بكونها ليست الدولة المثالية في نظره لاستمرار النظام الطائفي رغم الإصلاحات التي أدخلها عليه اتفاق الطائف، ولكنه بدأ يتعاطى بايجابية مع هذا الكيان، فاعترف بشرعيته دون أن يعترف بعدله ووافق على الانخراط في مؤسساته خاصة النيابية منها عبر خوض الانتخابات النيابية والبلدية تباعا منذ العام 1992.

ومن الملاحظ أن حزب الله قد حاول في البداية النأي بنفسه عن المشاركة في الحكومة طوال فترة ما قبل الانسحاب السوري من لبنان. حيث اعتبر أن الوجود السوري الذي لابد له من الالتزام بسقفه السياسي قد يجبره على اتخاذ قرارات سياسية داخلية قد تخالف توجهه السياسي والاجتماعي. وفي نفس الوقت كان الوجود السوري ضامنا لبقاء حزب الله كحركة مقاومة دون أن يحتاج الحزب أن يضمن ذلك بنفسه عبر المشاركة الحكومية. ومن هنا نشط حزب الله من خلال نوابه في مجلس النواب في معارضة الحكومة القائمة آنذاك بشكل هادئ ودستوري من حيث رفض منح الثقة للحكومة أو رفض الموازنة أو رفض البرامج الاقتصادية التي لا تنسجم مع توجهه الاجتماعي وهكذا. ومن اللافت أن الحزب كان نادرا ما يعارض على أساس إسلامي أو حتى أخلاقي، وإنما يسوق الأسانيد السياسية والدستورية في خطابه مثل استنكار التعدي على الحريات العامة أو على صلاحيات البرلمان وغيرها من الحجج الدستورية.

من جهة ثانية، فانخراط الحزب في العمل السياسي قد أسقط من أجندته المرحلية فكرة إقامة الدولة الاسلامية وعكس اعترافه بلبنان كوطن نهائي ونشط سياسيا على هذا الأساس. كما أن تجذّر وجود حزب الله بين القواعد الشيعية قد منحه مثل هذه المرونة التي أتاحت له التحول السلس نحو حزب سياسي يعدّل في خطابه نحو البراجماتية دون أن يفقد قواعد التي غالبا ما تغرم بالشعارات الايديلوجية. فقواعد الحزب المحلية أهلته للتأقلم السلس مع التطورات المحلية والإقليمية، وحينها اعتبر أن المشاركة السياسية توفر له فرصة لجعل النظام اللبناني أكثر عدلا.

[1] باستثناء قضية إفلاس رجل الأعمال القريب من حزب الله صلاح عز الدين، يبدو سجل حزب الله الخدمي والاقتصادي شبه خالي من الفساد، ولا تزال القضية منظورة أمام القضاء اللبناني ولم يتم الكشف عن ملابساتها بعد.

ويف نفس الوقت انعكس هذا التحول البراجماتي بدوره على مجمل خطاب الحزب، فالسقف اللبناني الذي اكتسبه عبر مشاركته السياسية جعله يُعيد صياغة أجندته العسكرية. فالحزب صار متقيّدا بالأجندة اللبنانية فقط وتدريجيا تخلى عن مقولات تحرير فلسطين بأكملها أو تحرير القدس والتزم بالدفاع عن لبنان واعترف بان واجب تحرير فلسطين يقع على الفلسطينيين أنفسهم. وقد بدا هذا الخطاب جليا خلال حرب 2006 رغم أنه كان له سوابق في 1993 و1996. فحزب الله كان ملتزما كحزب لبناني بالتفاهمات التي تم التوصل اليها عبر وسطاء بين الدولة اللبنانية وإسرائيل كتفاهم تموز 1993 وتفاهم نيسان 1996 حول وقف إطلاق النار على الحدود. وما كان محاولات الحزب دعم المقاومة الفلسطينية عبر عدة وسائل منها نقل الأسلحة أو الدعم اللوجيستي الى غزة عبر مصر إلا تجليا لهذا التوجه الجديد. فمع ترسخ الاعتقاد لدى قادة الحزب بأن سقف الطموح العسكري يجب أن يقف عن حدود الدفاع عن لبنان، كان لابد من نقل فائض الخبرة والمهارة التي يملكها إلى المقاومة الفلسطينية بكل الوسائل ومنها ما عُرف إعلاميا بخلية حزب الله في مصر.

وبالنظر الى التكوين الداخلي لجناح حزب الله السياسي فسنجد أنه يقوم على أساس ديمقراطي بحت، بل قد يكون من أكثر الأحزاب اللبنانية ديناميكية وحيوية من حيث الديمقراطية الداخلية. فالحزب يدير شؤونه الداخلية من جلال مجلس شورى مكون من 7 الى 9 أفراد يتم انتخابهم من قواعد الحزب كل عامين ويختار هذا المجلس من يشغل منصب الأمين العام. وفي هذا الإطار تختفي النزعة التوريثية التي تحكم معظم الأحزاب اللبنانية، فحزب الله ليس حزبا عائليا بل يجدد نخبه بشكل دوري.

وتحديدا منذ الانسحاب السوري من لبنان، بدأ الحزب في المشاركة بالحكومة فشارك بوزيرين كحد أقصى في الحكومات المتعاقبة منذ ذلك الحين. وقد تعاظم دوره السياسي في الضغط من أجل الحصول عبر حلفائه على حصة حكومية أكبر تناسب حجمهم السياسي وتمنع الحكومة من اتخاذ قرارات تمس دوره المقاوم. فذهاب الوجود السوري الذي كان يوفر له الغطاء الحكومي لدور المقاومة جعله يتخلي عن رفاهية عدم المشاركة في الحكومة. وكان حزب الله قد بدأ منذ انخراطه في العمل السياسي حملة واسعة للحوار السياسي مع مختلف القوى السياسية شملت كل الأطراف بلا استثناء. وقد تطور ذلك فيما بعد لعقد تفاهمات استراتيجية كالتي عقدها في فبراير 2006 مع التيار الوطني العر، فضلا عن تحالفه الضمني مع حركة أمل وتحالفاته الانتخابية المتوالية التي عقدها مع أطراف أخرى كتيار الحريري والحزب التقدمي الاشتراكي. بل أن التفاهم مع التيار الوطني الحر يكشف في بعض بنده مع تسامح حزب الله مع عودة عناصر جيش لحد الذي كانوا يتعاونون مع الاحتلال الاسرائيلي وفروا عقب التحرير الى داخل إسرائيل. وقد كشف هذا الأمر عن المرونة السياسية الكبيرة التي يتمتع بها الخطاب السياسي لحزب الله على أرضية الدستور اللبناني. حتى قيل أن حزب الله كحزب سياسي يستقي خطابه وبرامجه بالكامل من المرجعية العلمانية لا الدينية. وهو قول محق الى حد كبير، فرغم شعبية حزب الله الكبيرة وشبه المحسومة في صفوف الشيعة، فإنه لم يكف عن عقد تحالفات وتفاهمات مع الأطراف الأخرى، ولم يكف عن تطوير وسائله وخطابه السياسيين كما هو ظاهر من خلال اندماجه المتنامي في النظام السياسي اللبناني.

ويُلاحظ أن تحول لقيادة داخل الحزب من قيادة راديكالية صاحبت نشأة الحزب الى أخرى أكثر مرونة واعتدالا وانفتاحا في مطلع التسعينيات قد أدى الى استيعاب التذمر الداخلي في الحزب من التحول الحاصل في الخطاب السياسي. كما مهدت تدريجيا لاعتمادد آلية شبه دورية لتجديد خطاب الحزب على المستويات الدينية والسياسية والعسكرية كلما اقتضت الظروف وأملت الضرورات البراجماتية.

5-فاعل دون الدولة له تحالفات إقليمية

الحقيقة أن الدور الإقليمي الذي يلعبه الحزب مناط بالأساس بتحالفه السوري الإيراني ومن خلال انخراطه في الصراع العربي الإسرائيلي. فنشأة الحزب خلال الحرب الأهلية اللبنانية كفاعل محلي له امتدادات إقليمية أدى سريعا الى تكريس دوره الإقليمي في وقت كانت سلطة الدولة اللبنانية منهارة تماما. وبعد عودة سلطة الدولة بعد انتهاء الحرب استطاع الحزب أن يحتفظ بدوره المقاوم ذي البعد الإقليمي بفضل تحالفه مع سوريا التي أحكمت قبضتها على المشهد السياسي اللبناني بعد الطائف. والحقيقة أن الدعم الإيراني أسهم في نشأة الحزب وتطوير أدائه العسكري وتوفير الدعم المالي له حتى اليوم. كما أن الرضاء السوري بمد النفوذ الإيراني الى لبنان عبر تكوين حزب الله كان له دور كبير في ضبط أداء الحزب طوال فترة الوجود السوري في لبنان. ولكن رغم ذلك لا يمكن الدفع بأن حزب الله هو محض منتج إيراني سوري مشترك، بل هو كيان لبناني حاز الدعم السوري والإيراني كما حازت كيانات لبنانية أخرى دعما دوليا من جهات مختلفة. ولكن الفارق أن الدعم الإيراني والسوري قد تميز بالاستمرار لوقت طويل نسبيا دون انقطاع، وارتبط مؤخرا بعملية استقطاب دولي ومحلي حاد خلال السنوات التي تلت اجتياح العراق ومخطط المحافظين الجدد للشرق الأوسط الكبير أو الجديد.

ولكن اللافت تاريخيا أن علاقة حزب الله مع كل من إيران وسوريا لم تكن علاقة إملاء من طرف واحد، ربما بدأت كذلك ثم تطورت مع تطور الحزب واشتداد عوده اللبناني محليا الى علاقة شراكة قد ترقى عمليا الى الندّية. فرغم الاعتراف الديني للحزب بشرعية النظام الإسلامي في إيران، غير أن مقتضيات الواقع والبراجماتية السياسية جعلت للحزب هامشا لا يكف عن الاتساع بما يضمن له استقلالية متزايدة كل يوم. ولولا مناخ الاستقطاب الدولي لكان من الممكن أن تكون التمايزات أوضح. وكذلك الحال بالنسبة لسوريا، فإذا اعتبرنا أن الحزب يستمد مبدأيته وأيديولوجيته من تحالفه الإيراني، فهو بكل تأكيد يستمد براجماتيته من تحالفه السوري. وإذا افترضنا أن المصالح السورية والإيرانية غير متطابقة بالمطلق، فالحزب قد استغل هذا التمايز كي يحافظ على كل من التحالفين بما ضمن له شخصية مستقلة إلى حدٍ بعيد. يُضاف إلى ذلك نشاطه السياسي المحلي والتزامه بالسقف اللبناني بما أكد هويته اللبنانية التي قد تتناقض بطبيعة الحال مع تحالفاته الإقليمية مثل سائر الأحزاب اللبنانية المدعومة من قوى خارجية طبقا للاستثناء اللبناني في هذا الخصوص.

ثانيا: تداعيات وتفاعلات الأدوار المتعددة لحزب الله

بالنظر للظروف المحلية والإقليمية والدولية وفرص تطور النظام السياسي اللبناني وبالنظر للأدوار المتعددة التي يؤديها الحزب بما فيها انخراطه في الصراع العربي الإسرائيلي، نجد أن حزب الله يواجه عدة تحديات لم يتوصل إلى موقف حاسم بشأن معظمها بعد.

الإشكالية الأولى تتعلق بما هو أولى بالترجيح في أولويات حزب الله، هل هو الجانب العسكري أم الجانب السياسي. ونلاحظ أنه وفق خيارات الحزب خلال السنوات الخمس الأخيرة فإنه قد التزم بالسياسي الى حد بعيد ولكن في المراحل التي كان فيها العسكري مهددا رجح الحزب العسكري على حساب السياسي وأوضح مثال على ذلك كان أحداث 8 أيار 2008. ففي ظل الأزمة الحكومية القائمة آنذاك والتنازع على التشكيل الحكومي فقد اكتفى الحزب وحلفائه من المعارضة بالاحتجاج السلمي وفق مقتضيات السياسة طوال عام ونصف العام، تخلل ذلك انسحاب ممثلي الطائفة الشيعية من الحكومة. ولكن عندما أصدرت الحكومة قرارات تمس كيان المقاومة وبنيتها التحتية وهى شبكة الاتصالات السلكية، لم يتوان الحزب خلال ساعات قليلة عن حماية رأس ماله العسكري عبر العصيان المدني الذي تحول سريعا عصيان عسكري واشتباكات بين عناصر مسلحة من حزب الله وأمل والحزب السوري القومي الاجتماعي من جهة، وعناصر مسلحة من تيار المستقبل والحزب التقدي الاشتراكي من جهة ثانية.

الاشكالية الثانية تتعلق بجدلية الارتباط الإقليمي أو السقف المحلي ولأيهما الغلبة في أولويات الحزب. ونجد أن الالتزام الإقليمي للحزب هو مرتبط بشكل مباشر بإمدادات السلاح والذخيرة الخاصة بدوره المقاوم مما يجعل له أهمية قصوى. ولن لا يمكن إنكار أنه ومنذ انخراط الحزب في العمل السياسي فإن سقف الدولة اللبنانية أصبح ذا دلالة كبيرة بالنسبة لخيارات الحزب. وتحديدا منذ حرب 2006 والجدل الذي أثير حول "من يملك قرار الحرب والسلم في لبنان"، يبدو الحرب أكثر التزاما بالسقف اللبناني من حيث القرار 1701. فالحزب التزم بسحب وجوده العلني من مناطق انتشار الجيش اللبناني وقوات اليونيفل، وعندما حدث وصادر الجيش اللبناني شحنة أسلحة من المرجح أنها عائدة للحزب لم يعترض هذا الأخير. بل والأكثر من ذلك أنه عندما اسقط أحد عناصر حزب الله طوافة تابعة للجيش اللبناني ظنا منه أنها تابعة للجيش الإسرائيلي، سلم الحزب على الفور هذا العنصر للجيش اللبناني. ولا شك أن جدل "قرار الحرب والسلم" قد احرج حزب الله مما اضطره الى التوجه للالتزام بالسقف اللبناني وبالتالي من غير المتوقع أن يعمد الحزب الى تسخين الحدود مرة أخرى دون دافع لبناني حقيقي. والدليل على ذلك أنه لم يتدخل أثناء حرب غزة في مطلع 2009، كما انه اكتفى بالتلويح بالتدخل دون ان يتدخل فعلا عقب الاشتباك الحدودي الذي جرى بين الجيش اللبناني والجيش الاسرائيلي في قرية العديسة الحدودية في أغسطس 2010. وعليه فإن حزب الله قد التزم في هذه الواقعة بالسقف اللبناني ثم أخذ يكيّف هذا السقف وفق معادلة جديدة للتدخل العسكري للحزب من عدمه. فقد اعتبر الحزب أن الجيش اللبناني هو المسئول الأول عن حماية الحدود ثم وضع إمكانياته وعناصره ذات الوجود غير

العلني في الموقع بتصرف الجيش. فالتدخل القادم سيكون إما بناءً على طلب من الجيش بالإمداد أو المساندة أو إزاء المواجهات المفتوحة التي تتخطي قدرات الجيش المحدودة وتتطلب غطاءً من الصواريخ القصيرة والبعيدة المدى أو بمصاحبة غطاء سياسي موسع ومتوج بقرار من مجلس الوزراء ورئاسة الجمهورية.

ففي المعارك المحدودة التي تقتصر على الأسلحة الخفيفة، الجيش اللبناني قادر كما تجلي من موقعة العديسة على التصدي للجيش الإسرائيلي بكفاءة كبيرة. ولكن كلما اتسع نطاق الاشتباك وتطور نحو المواجهة المفتوحة سيتسنى للجيش الإسرائيلي أن يستثمر كامل عتاده وآلياته وطيرانه وربما بحريته أيضا بما يفوق بلا شك إمكانيات الجيش اللبناني، مما يجعل تدخل المقاومة حينها أمرا ضروريا لكبح القدرات العسكرية الإسرائيلية والدخول في سباق الصواريخ والصواريخ المضادة التي تصيب الجبهة الداخلية للجانب الإسرائيلي وتضاعف من خسائره في حال إطالة أمد الحرب.

وقد كشف الاشتباك الحدودي عن مستوى التنسيق الدقيق الذي تم بين الجيش والمقاومة من جانب وبين قيادة المقاومة و العناصر الحدودية التابعة لها. ففي أحداث سابقة كان سوء التنسيق بين الجيش والمقاومة وربما انعدامه بالمرة قد أدى الى وقوع خسائر وهدر للطاقات ومنها مثلا واقعة إسقاط إحدى الطائرات التابعة للجيش ظنا أنها تابعة للطيران الإسرائيلي ومقتل قائدها. ومن جهة ثانية أدى الاتصال الفوري والدقيق الذي تم بين قيادة حزب الله وعناصره المتمركزة على الحدود الى ضبط هذه العناصر ومنع تدخلها في الاشتباك مما أسهم في تطويقه ومنع انتشار مداه. وهنا تجلت القيمة المضافة التي تحملها شبكة الاتصالات السرية لحزب الله، حيث منعت تفجر الأوضاع على الحدود وحصّنت التزام الحزب بعدم التدخل إلا بطلب من الجيش.

الاشكالية الثالثة تتعلق بأولوية المطالب السياسية التي يرفعها الحزب وهل هي طائفية أم إصلاحية تعزز التطور الديمقراطي. والحقيقة أن مجرد وجود حزب سياسي فعال ونشيط يعبر عن الطائفة الشيعية قد أدى إلى دمج وتمكين الشيعة أكثر من ذي قبل. وبالتالي فالحزب يصب بشكل تلقائي في الرصيد السياسي والاجتماعي للشيعة، غير أن الحزب يحرص على عدم حصر نشاطه السياسي بكونه وكيل عن الشيعة فحسب. بل هو يسعى إلى تقديم نموذج الحزب الذي يمد جسور التواصل مع مختلف الطوائف على أساس المشتركات السياسية والحضارية وهو في ذلك فاق العديد من الأحزاب والجماعات الإسلامية السنية في العالم العربي. فقد قاد الحزب نشاط المعارضة بكافة طوائفها طوال فترة احتجاجها على حكومة الرئيس فؤاد السنيورة من ديسمبر 2006 وحتى انفلات الوضع في 8 مايو 2008. فكان من سمات هذا التحرك الالتزام بالتضامن البيني وإعلاء العمل الجماعي في تفاصيل كل حدث شعبي كان يتم تنظيمه خلال تلك الفترة. ومع ذلك فمن الطبيعي أن يُنظر بريبة الى مطالب الحزب الجادة بإلغاء الطائفية السياسية وهو الممثل

الرئيس عن أكثر الطوائف عدد في لبنان. فحتى مطالبة الإصلاحية بإلغاء الطائفية تؤخذ ضده لكونه قد يصبح المستفيد الأول من هكذا إلغاء. أما المطالب الإصلاحية الأخرى كتصويت الشباب من سن 18 عام وحق تصويت المغتربين ودعم الحقوق الاجتماعية من خلال السياسات العامة للدولة فتحظى جميعها بالدعم العلني من جانب الحزب. ولكن المعضلة الأساسية أنه في ديمقراطية المساومات التي تسود في لبنان لن يستطيع حزب الله أن يساوم أو أن يخوض معركة سياسية من أجل إقرار هكذا إصلاحات بما قد يؤثر على دوره المقاوم، ذلك أن كل الشرور الاجتماعية والاقتصادية وغياب العدل لا تعادل الشر المطلق الذي يركز الحزب على محاربته وهو الاحتلال الإسرائيلي.

الإشكالية الرابعة تتعلق بمعضلة سلاح حزب الله وهل هو سلاح أبدي أم هو سلاح مؤقت ارتبط بظروف محددة وسينتهي بزوالها. والحقيقة أن البناء الفكري للحزب لا يعترف بحق إسرائيل بالوجود ويؤمن بأنها إلى زوال لأنها منذ قامت تحمل معها بذور فنائها. كما يؤمن أيضا بأن المقاومة المسلحة هي الطريق الوحيد لتحقيق التحرير وبالتالي فهو لا يؤمن نظريا بالمفاوضات. ومع ذلك فقد اتبع الحزب طريق المفاوضات ولكن غير المباشرة أثمرت أكثر من مرة عبر الوسيط الألماني عن صفقات لتبادل الأسرى. ومن هنا فإن الحزب كي يضمن تماسكه ووحدته الداخلية لا يمكن أن يعترف علنا بإمكانية المفاوضات المباشرة مع الإسرائيليين أو بجدواها ولكنه قد يمارسها فعليا عبر وسطاء أو يقبل أن تمارس باسمه عبر طرف آخر قريب منه كالمفاوضات السورية الإسرائيلية.

وبالتالي إمكانية قبول الحزب لاتفاق سلام بين سوريا ولبنان من جانب وإسرائيل من جانب آخر هو أمر محتمل خاصة إذا كان في إطار اتفاق اشمل يتبنى حق العودة للاجئين الفلسطينيين. لكن ما لا يقبله الحزب علنا وضمنا أن توجه الانتقادات إلى سلاحه قبل توفير استراتيجية دفاعية بديلة تضمن للبنان توازن قوى وردع في مواجهة إسرائيل. من هنا كانت أهمية صياغة استراتيجية دفاعية لبنانية متكاملة تضمن المزاوجة بين الإمكانيات المتوافرة للبنان عبر مقاومته وجيشه بما لا يخل بتوازن القوى الحالي بل يحسن من مفرداته لصالح لبنان. ورغم المساعدات التي يتلقاها الجيش اللبناني منذ العام 2006 من قوى غربية إلا أنه لا يزال غير مؤهل من حيث العتاد والكفاءة للاضطلاع وحده بمثل هذه المهمة. فهذه الاستراتيجية تقتضي تحديد حجم الإنفاق العسكري وتوصيف الدول الصديقة والمعادية ووضع خطط دقيقة لتطوير أداء المؤسسة العسكرية والمهام الموكولة إليها وكيفية تحقيق الأمن الوطني وتحديد المصالح الوطنية العليا انتهاءاً بأسلوب توظيف الجيش لهذه القوة في ظروف السلم والحرب. وبالتالي فالأمر يتطلب أن يتم مناقشة كافة هذه التفاصيل في إطار لبناني جامع كما هو حادث من خلال هيئة الحوار الوطني. كما يتطلب أيضا توفير مناخ من الاستقرار الكامل لمواكبة هذه المشاورات. الأمر الذي قد يثمر إيجاد صيغ توافقية تثمر في تسليح الجيش على نحو أكثر موائمة للوضع اللبناني الدقيق في الصراع العربي الإسرائيلي. وفي هذه الأثناء يبقى وضع حزب الله الاستثنائي مناسبا لاستثنائية الوضع في الشرق الأوسط بأكمله، فليس من المفترض أن تكتمل أركان دولة ذات سيادة بمحاذاة دولة ذات ميول توسعية وقوة باطشة كإسرائيل، دون مراعاة العوامل الجغرافية المحيطة. فلبنان في قلب منطقة الصراع الأكثر سخونة في العالم حيث للقوة الخشنة الكلمة العليا،

فلا يمكن حينئذ أن يتخلى طواعية عن مكمن قوته تحت دعوى بناء الدولة ما لم تتوفر المقومات العسكرية الكافية لبناء هذه الدولة بحق. ومن هنا تبدو معادلة المزاوجة بين إمكانيات الجيش والمقاومة قابلة للاستمرار حتى تتبدل المعطيات الإقليمية بما يتيح للبنان امتلاك هذه المقومات بالفعل. وفي هذه الأثناء يصبح وجود المقاومة في حد ذاته دافعا لتبدل هذه المعطيات الإقليمية، فوجودها يحقق الردع والحماية المطلوبة في حال الحرب، ووزنها الاستراتيجي يرفع من القدرة التفاوضية للعرب في حال دخول المنطقة في موسم مفاوضات السلام. ومن هنا فسلاح حزب الله لا يعالج بمعزل عن مجمل المعطيات الإقليمية وأهمها مستقبل السلام بشكل عام في الشرق الأوسط على المسار اللبناني والسوري والفلسطيني أيضا. وذلك لما لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين من آثار بالغة على سيادة لبنان لا تقل في تداعياتها عن وجود سلاح مواز لسلاح الدولة بل قد تفوقها للتأثير على المستقبل الديموغرافي للكيان اللبناني ككل. ومن هنا يمكن اعتبار تأجيل البت في سلاح حزب الله لحين التوصل لسلام شامل ضمانة ضد التوطين في لبنان وهو يؤدي مصلحة لبنانية عليا تضاف الى وظيفة الردع والحماية التي يؤديها حاليا هذا السلاح.

قائمة المراجع

- أمل سعد غريّب، حزب الله..الدين والسياسة، بيروت:2009، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات الحضارية، ط2

- جيلز ترندل، "حزب الله: البراجماتية والدعم الشعبي"، في عبد المنعم سعيد ومنار الشوربجي (محرران)، لبنان تحت الحصار..مأزق السلام في الشرق الأوسط، القاهرة:1996، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ص ص 78-83

- جلبير الأشقر ومخائيل فارشنفسكس، حرب الـ33 يوما: حرب إسرائيل على حزب الله ونتائجها، بيروت:2007، دار الساقي

- عبد الإله بلقزيز، حزب الله من التحرير الى الردع 1982-2006، بيروت 2006، مركز دراسات الوحدة العربية

- مي شرتوني- دوباري، "حزب الله: من ميليشيا الى حزب سياسي" في عبد المنعم سعيد ومنار الشوربجي (محرران)، لبنان تحت الحصار..مأزق السلام في الشرق الأوسط، القاهرة:1996، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ص ص 74-77

- هبة رءوف عزت، "نصر اللادولة: تحولات مفاهيم المواطنة والوطن والجماعة السياسية"، في محمد حسين بزي، الوعد الصادق: يوميات الحرب السادسة، بيروت- القاهرة: 2006، دار الأمير للثقافة والعلوم ومكتبة الشروق الدولية، ص ص 21-35

- Bilal Y. SAAB, "Rethinking Hezbollah's disarmament", *in* Middle East Policy, vol. XV, no. 3, Fall 2008

- Mona HARB & Lara DEEB, "Politics, Culture, Religion: How Hezbollah is constructing an Islamic Milieu in Lebanon", *in* Review of Middle East Studies, vol. 43, no.2, winter 2009